الفصل الثالث

الموضوعيـة
فى العلوم الاجتماعية(*)

تنطوى كثير من العقول على تساؤل يظل ضمنيا أحيانًا ويظهر صريحًا أحيانًا أخرى حول مدى توفر الموضوعية فى العلوم الاجتماعية مقارنة بالعلوم الطبيعية والبيولوجية، وتتفاوت الإجابة من شخص إلى آخر على هذا السؤال نتيجة لعوامل متعددة، من أهمها ذلك القدر من المعرفة الدقيقة المتوفرة لدى السائل بالعلوم الاجتماعية، ومدى اطلاعه على تاريخ العلوم الطبيعية، وموقفه الفلسفى والأيديولوجى بوجه عام.

ونظرًا لكونى واحدًا من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية، ولأننى مقتنع اقتناعًا عميقًا بمسئولية الباحثين العلميين عمومًا تجاه مجتمعاتهم، وبأن العلوم الاجتماعية قادرة بحاضر إنجازاتها، وبمستقبلها، على أن تقدم إمكانات كبيرة لترشيد ممارساتنا الشخصية والاجتماعية، فقد رأيت أن أسهم برأى فى هذا الموضوع كجزء من واجب عام نحو إثراء مجال التخصص، ولاسيما فى موضوع يقع على خط الحدود بينه وبين فلسفة العلوم، حيث إسهامات الزملاء قليلة بينما توحى كثير من الدلائل أن لاغنى عن جهودهم فى هذا الصدد.

مجال العلوم الاجتماعية :

تطلق هذه التسمية فى الوقت الحاضر على عدد كبير من الدراسات، منها كثير من فروع علم النفس. وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا الحضارية، والاقتصاد، والتاريخ، والآثار، والقانون المقارن، وفى الوقت ذاته يسود اقتناع بأن فروع علم

(*) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٩٧.

النفس، والاجتماع، والأنثروبولوجيا الحضارية تكوّن معًا النواة المركزية لهذا التجمع، وهذا هو المجال الذى سأتحرك فيه وأنا أتحدث عن الموضوعية، ومع ذلك فسيكون تركيز معظم الحديث عن علم النفس بفروعه المختلفة، لسببين رئيسيين: أولهما: أُلفتى بهذه المنظومة بحكم التخصص، وثانيهما: ما أتصوره من أن ما يصدق من اعتبارات منهجية على علم النفس يصدق كذلك ولكن بدرجات متفاوته على سائر العلوم الاجتماعية، ومن ثم يكون تركيز الحديث على علم النفس من باب توفير المزيد من الوضوح.

معنى الموضوعية :

الموضوعية مصطلح فلسفى أصلاً، ومع أنه بالغ الأهمية بالنسبة لعمل العلماء باعتباره واحدا من الركائز الرئيسية لعملهم فإنه قلما يحظى بمناقشة صريحة فى كتاباتهم البحثية، وربما كان ذلك لذيوع الشعور فيما بينهم بأنه ينتمى إلى مجال فلسفة العلم لا إلى مجال ممارسة العلم كنشاط بحثى، وربما كذلك لشعورهم بأن الموضوعية من المسلَّمات Postulates. ونحن عادةً لا نناقش المسلَّمات.

ويقدم أستاذ الفلسفة الفرنسى الشهير أندريه لا لاند A. Lalande مناقشة مكثفة لهذا المصطلح فى معجمه المعروف للمصطلحات الفلسفية (Lalande 1924) تحت ثلاثة عناوين منفصلة: موضوعى Objectif، وموضوعية Objectivité، و Objectivism. وترد أكثر المناقشات تفصيلا تحت العنوان الأول: Objectif موضوعى، ويورد لالاند فى هذا الصدد ستة تعريفات مستخلصة من كتابات الفلاسفة على طول تاريخ الفلسفة، ثم يشفع هذا العرض بالتوصية باستخدام التعريف الثالث لأنه فى رأيه أفضلها جميعا، وأنسبها للاستخدام فى شأن العلوم المختلفة، ومؤدى هذا التعريف الثالث ما يأتى:

الموضوعى ضد الذاتى[1]، والذاتى هنا بمعنى الفردى. وعلى ذلك فما يوصف بأنه موضوعى تكون له مصداقيته بالنسبة لجميع العقول لا بالنسبة لعقل هذا الفرد

(1) subjectif.

أو ذاك فحسب، ويورد لا لاند دعما لهذا المعنى نصوصًا من الفيلسوف الفرنسى H. Poincaré هنرى پوانكاريه (١٨٥٤-١٩١٢). يقول پوانكاريه فى كتاب له بعنوان «قيمة العلم» ما معناه: عندما ندَّعى أن علاقات ما لها قيمة موضوعية فنحن نعنى أن لها قيمة بالنسبة لجميع العقول الموجودة الآن، وأنها ستكون كذلك بالنسبة لجميع العقول التى تأتى من بعدنا، ومع أننا لا نستطيع أن نتصور لهذه العلاقات وجودًا متميزًا فى المكان خارج العقل الذى يدركها فإن هذا لا يقلل من موضوعيتها، لأن وجودها هو ما هو الآن، وستظل كذلك بالنسبة للجميع فى المستقبل. إلى هنا تنتهى أفكار پوانكاريه.

وهذا المنحى هو ما آخذ به فى مقالى الراهن، وأرى أنه يصدق بالنسبة للعلوم جميعًا، الطبيعية، والبيولوجية، والاجتماعية.

تمهيد للحديث المنضبط عن علم النفس :

قبل الاسترسال فى الحديث أقدم للقارئ تمهيدًا لضبط الحديث عن علم النفس، أقول ذلك لأن خبرات الحياة عمومًا وخبرتى فى عالم التخصص علمتنى أننا كثيرًا ما نتكلم ونحن نعنى شيئا بذاته، ويتلقى المستمع (أو القارئ) كلامنا وقد فهم شيئا آخر غير ما نعنى، وذلك لأننا لم نتأكد منذ بدء الحديث من وحدة المسمَّى فيما بيننا، وقد زادت هذه المحنة فى المرحلة الأخيرة من حياتنا الاجتماعية لأسباب قد تكون سياسية فى المحل الأول.

علم النفس العلمى :

ماذا نعنى بالضبط عندما نتكلم نحن أبناء التخصص عن علم النفس بفروعه المختلفة؟

النقطة الأولى فى الإجابة عن هذا السؤال أننا نفرّق بين ما نسميه علم النفس العلمى[1]، وعلم النفس الدارج[2]. والمقصود بهذه التفرقة الإشارة الواضحة إلى

(1) scientific psychology.

(2) common-sense psychology.

أن علم النفس العلمى يستخدم فى الوصول إلى المعلومات التى تقرها الأساليب العلمية الأساسية المتعارف عليها بين الباحثين العلميين جميعا، وعلى رأسها المشاهدة المنظمة[١] والاستنباط المنظم[٢]، وفى السبيل إلى ذلك يجرى البحوث الميدانية والبحوث المعملية ويستخدم القواعد والمعادلات الإحصائية المختلفة، مثل طرق اختبار الفرض الصفرى[٣]، وحساب معاملات الارتباط[٤]، وتحليل الانحدار[٥]... إلخ، وذلك باعتبار الإحصاء هو ذلك الفرع من الرياضة الذى يصلح فى المرحلة الحاضرة من ارتقاء العلوم النفسية لتوضيح وتفسير ظواهر الحياة النفسية. وفى مقابل ذلك فإن ما يسمى بعلم النفس الدارج يعتمد فى إقرار معارفه على أساليب مغايرة من أهمها المشاهدة العابرة أو الطارئة[٦] والاستنباطات العفوية[٧].

والنقطة الثانية، أننا فى علمنا لاندرس النفس كما يوحى الاسم لأول وهلة، ولكننا ندرس ظواهر النشاط النفسى، أو ما يسمى بالوظائف النفسية، وهذه تضم تحت مظلتها نوعين من الظواهر، هما ظواهر السلوك[٨]، وظواهر الخبرة[٩]؛ والسلوك نوعان: السلوك الصريح[١٠]، وهو الذى يمكن مشاهدته مباشرة بواسطة أكثر من مشاهد، ومن هذا القبيل الكتابة والمشى والجرى... الخ، والسلوك الضمنى[١١] وهو الذى لا يمكن مشاهدته مباشرة إلا بوساطة من يمارسه، كالتفكير فى حل مشكلة ما، ومحاولات التذكر، وعمليات المقارنة بين حجمين أو

(1) systematic observation.
(2) systematic inference.
(3) null hypothesis.
(4) correlation coefficients.
(5) regression analysis.
(6) accidental observation.
(7) casual inference.
(8) behaviour.
(9) experience.
(10) overt behaviour.
(11) covert behaviour.

لونين... الخ. والخبرة كذلك نوعان: خبرة مباشرة مثل الآثار الشعورية والتصورية المباشرة لتعاطى مادة مخدرة كالحشيش، والخبرة غير المباشرة مثل الآثار البعيدة المترتبة على تعلم الشخص مهارات بعينها، كتعلم لغة أجنبية، وتعلم السباحة، أو قيادة السيارة... إلخ.

وقد ابتكر علماء النفس أو طوَّعوا الأساليب المناسبة لتوقيع المشاهدة النظامية على جميع هذه الظواهر التى تندرج تحت مفهومَىْ السلوك والخبرة، كما ابتكروا وطوَّعوا الأساليب المناسبة لمعالجتها فى تحليلاتهم العلمية المختلفة.

والنقطة الثالثة والأخيرة أن علم النفس العلمى شىء والتحليل النفسى شىء آخر[1]، وأنا أذكر هذه النقطة على وجه التحديد لأن كثيرا من مثقفينا لديهم بعض معلومات عن التحليل النفسى، وخاصة ما نسب منه إلى سيجموند فرويد S. Freud، وهم يوحدون بين هذا التحليل النفسى وعلم النفس. وهذا خطأ. هناك بضع ركائز تحتم التفرقة بين الاثنين:

أولها الفارق فى النشأة التاريخية؛ فالتحليل النفسى نشأ فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، تحت مظلة الطب النفسى، وقد نشأ بوصفه محاولة للتغلب على بعض الصعوبات التى واجهت التطبيب النفسى فى ذلك الوقت، تطبيب حالات الهستريا. ولم تقتصر المحاولة على الوقوف عند مستوى التغلب العملى العيادى على تلك الصعوبات بل تعدت ذلك إلى مستوى التنظير لفهم المرض النفسى، ثم لفهم الصحة النفسية عمومًا، ثم لفهم المجتمع والحضارة. وارتبط اسم التحليل النفسى فى بدايته باسم سيجموند فرويد طبيب الأعصاب النمساوى، ثم بأسماء كثيرين ممن تتلمذوا عليه، وأسهموا بإسهامات كثيرة فى منظومته، وفى مقابل هذه النشأة التاريخية للتحليل النفسى نجد أن علم النفس العلمى بدأ يخطو خطواته الأولى فى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر، أى قبل بدء التحليل النفسى بحوالى خمسين سنة، وقد نشأ فى رحاب معامل

(1) psychoanalysis.

فيزيولوجيا الأعصاب، كمحاولة جادة للدراسة التجريبية للكشف عن العلاقة بين الخصائص الفيزيقية للمؤثرات اللمسية والصوتية والضوئية من ناحية، والخصائص النفسية لاستجابة الشخص الحسية لهذه المؤثرات (Brett 1965; Mur-phy 1938).

وقد امتدت هذه المحاولات المبكرة بمنطقها البحثى الأساسى لتشمل فيما بعد سائر جوانب السلوك والخبرة؛ وفى أثناء هذه النمو طرأت عليها تغيرات منهجية متلاحقة أدت بها فى أواخر القرن التاسع عشر إلى أن تنفرد بنوع بعينه من المعامل بدلا من البقاء داخل معامل الفيزيولوجيا، فأسست لهذا الغرض أول معمل لإجراء تجارب علم النفس بصورتها النوعية، وكان ذلك فى مدينة ليبزج فى ألمانيا سنة ١٨٧٩، وارتبطت هذه المسيرة بأسماء خاصة بها من أهمها فيبر E. H. Weber الذى بدأ أكثر التجارب تبكيرا حوالى سنة ١٨٣٢، وفنت W. Wundt الذى يُعزى إليه الفضل فى تأسيس أول معمل لعلم النفس سنة ١٨٧٩، ولابد من أن يلاحظ هنا أن هذه النشأة لعلم النفس العلمى تربطه منذ البداية بالسعى إلى دراسة الوظائف النفسية فى صورتها السوية لا المرضية.

خلاصة هذه الفقرة من الحديث أننا عندما نتكلم عن علم النفس، نعنى منظومة بعينها نميزها بأن نطلق عليها اسم «علم النفس العلمى»، وهذا يعتمد القواعد الأساسية للبحث العلمى تمييزا له مما نسميه علم النفس الدارج، والموضوع الرئيسى لمنظومتنا هذه هو السلوك والخبرة. وقد نشأت هذه المنظومة فى رحاب معامل الفيزيولوجيا، ثم استقلت فيما بعد بمعاملها النوعية، وكان شغلها الشاغل دراسة الوظائف النفسية فى صورتها السوية، أى فى صورتها الملازمة للحياة النفسية السوية (لا المرضية).

مستويات الموضوعية :

نعود الآن بعد هذه الجولة فى التمهيد للحديث المنضبط عن علم النفس نعود إلى النظر فى مسألة الموضوعية التى هى محور هذا المقال.

وقد ذكرت فى بداية الحديث معنى الموضوعية كما يوصى بتبنيه واحد من أفضل المعاجم الحديثة للمصطلحات الفلسفية. وخلاصة هذا المعنى أن الموضوعى هو ما يحمل فى نفسه من العناصر ما يجعل العقول جميعا تتقبله، وقد أشار لالاند إلى أن هذا المعنى يتفق مع ما يذهب إليه پوانكاريه الرياضى والفيلسوف الشهير. وننتقل الآن إلى مزيد من تفصيل الحديث.

الموضوعية مفهوم مركَّب وليست مفهوما بسيطا، والتعريف الذى يقدمه لالاند فى معجمه إنما هو تعريف مكثَّف يقوم على دمج عناصر متعددة معًا ويمكن تحليل هذا المفهوم إلى مكوّنين أساسيين، هما:

١- موضوعية المدرَك، مستقلا فى وجوده عن كيفية إدراكنا إياه، ويزداد وزن موضوعيته علينا بمقدار إرغامنا على تخليص عقولنا من أثر بعض أو كل الخداع الحسى، أو التلوين الوجدانى الذى قد يشوب هذا الإدراك. (وهذا أحد معانى مصطلح «الذاتى» ـ عكس الموضوعى ـ وقد ورد عند لالاند مصنَّفا تحت المعنيين الرابع والخامس، بمعنى المستقل عن الهوى أو الإرادة الشخصية).

٢- وموضوعية الناتج الذى نصل إليه نتيجة لاستخدام طرق الاستنتاج النظامى من فرض معين، أو من نظرية ما، أو من مقدمات بعينها أيا كانت صياغتها.

هذان هما المكونان الأساسيان أو المركّبتان الأساسيتان لمفهوم الموضوعية: موضوعية المدرَك، وموضوعية الناتج. ومع عدم إغفال المركّبة الأولى فإن النظر فى تاريخ العلوم يوضح لنا أن المركّبة الثانية مركبة الناتج هى المكوّن الرئيسى لرصيد الموضوعية الذى يستند إليه معظم الصرح العلمى بمجالاته المختلفة، وهذا ما يوضح الاهتمام السائد فى مسيرة العلم بوضع أعلى قدر من الضمانات للاطمئنان على عملية التحقق من سلامة الوصول إلى الناتج. وقد سار العلم فى هذا السبيل فى مسارين، أحدهما اقتضته الطبيعة المعرفية/ المنهجية للعلم، والآخر اقتضته طبيعة العلم كمؤسسة اجتماعية.

(١) فأما مساره المنهجى فيتمثل فى تحديد عدد من الإجراءات الضابطة لا سبيل إلى التخلى عنها. من أهمها:

ـ القابلية للإعادة[١]، أى إعادة الإجراءات التى اتبعها الباحث فى القيام بمشاهداته، أو فى القيام بتجربته. وتكون هذه الإعادة بوساطة زملاء التخصص إذا أرادوا التحقق (Barlow & Hersen 1984, p. 325).

ـ القابلية للاستعادة[٢]، ويقصد بها استعادة النتائج الرئيسية التى توصل إليها الباحث. إذا استخدمنا أدواته وطرق تطبيقها بحثيا. (مثال ذلك أدوات قياس القدرات العقلية أو السمات الشخصية).

ـ التحديد المفصَّل للخطوات المنطقية، أو الصياغات الرياضية (الإحصائية) التى استخدمها الباحث للوصول إلى استنتاجاته، أو توقعاته وتنبؤاته. (ويكون ذلك عادة باستخدام أساليب الإحصاء الاستنباطى[٣] وما يسمى بتصميمات التجارب[٤]).

(٢) وأما عن المسار التاريخى أو المؤسسى للعلم فهو يتمثل فى إقامة عدد من المؤسسات، توالى قيامها واحدة بعد الأخرى كمراصد ذات طبيعة اجتماعية/ أكاديمية يقيمها مجتمع العلماء لرصد وتسجيل مدى الانصياع لضوابط الموضوعية، والاعتراف ـ بناءً على ذلك ـ لمن يستحقون الاعتراف أو التدشين، وزيادة أحكام هذه الضوابط على ضوء الخبرات المتراكمة. ومن أهم هذه الخطوات المؤسسية التى ابتكرت لأداء هذه الوظيفة ما يلى (Rosenberg & Birdzell 1990):

أ - إنشاء منظمات تضم مجموعات من العلماء لتكون منبرا يقدم العلماء الأفراد فيه مكتشفاتهم على مسمع من الأقران، ويناقشهم فيه زملاء التخصص وذلك لامتحان مصداقية هذه المكتشفات. والمثال الواضح هنا هو إنشاء ما سمى

(1) replicability.
(2) reproducibility.
(3) inferential statistics.
(4) designs of experiments.

بالجمعية الملكية للارتقاء بالمعرفة الطبيعية[1]، سنة ١٦٦٠ وقد تكونت على إثر ذلك عدة جمعيات مماثلة فى أماكن متعددة من أوروبا لخدمة الغرض نفسه.

ب - إنشاء شبكة لتوزيع المعلومات بما يسمح للعلماء أن يكونوا على معرفة بما ينجزه بعضهم أولا بأول والنظر فى إمكان استخدامه والبناء عليه (الدوريات والمؤتمرات والندوات... إلخ).

جـ - إنشاء نظام للتحكيم وتكوين طواقم من (المحكّمين) من الأقران أو زملاء التخصص[2] (وليس من خارج التخصص).

د - إنشاء مؤسسات رسمية للتعليم والبحث (وفى هذا الصدد نذكر قيام الجامعات من ناحية، وتأسيس كيانات يعمل فيها العلماء معًا يتوفر فيها معمل ومكتبة):

فى فرنسا	L'Ecole Polytechnique سنة ١٧٩٥
فى انجلترا	The Royal Institution سنة ١٧٩٩
فى أمريكا	The Shefield School of Science سنة ١٨٤٧
وفى أمريكا كذلك	M.I.T سنة ١٨٦٥

هـ - إنشاء نظام لمكافأة المتفوقين بإنجازاتهم.

فإذا نظرنا فى هذه الخطوات مجتمعة لاستخلاص دلالاتها المختلفة فسنجد أن الدلالة الرئيسية وراءها جميعا هى وضع الضمانات لتوفر الموضوعية بالمعنى الذى يحدده لالاند: وهو أن الموضوعى له مصداقيته بالنسبة لجميع العقول لا بالنسبة لهذا الفرد أو ذاك فحسب.

الموضوعية فى علم النفس العلمى :

تواجه مشكلة الموضوعية علماء النفس بوجه أكثر تعقيدًا من ذلك الذى تواجه به سائر العلماء فى مجالى العلوم الفيزيائية والبيولوجية، ويرجع السبب الرئيسى

(1) Royal Society for Improving Natural Knowledge.

(2) peer reviewers.

فى هذا الفرق إلى التعقد النسبى فى طبيعة الظاهرة النفسية التى هى موضوع اهتمام علماء النفس، مما يجعلها تستعصى فى كثير من الأحيان على طرق المشاهدة النظامية فى العلوم الفيزيائية والبيولوجية، ومن ثم يستلزم ابتكار طرق خاصة تناسب طبيعة هذه الظاهرة النفسية دون أن تخرج فى نهاية الأمر عن نطاق المعنى الأساسى لمفهوم المشاهدة العلمية.

وسأعرض فيما يلى بعض مظاهر هذا التعقد فى طبيعة الظاهرة النفسية:

١- ويبدو أحد مظاهر هذا التعقد من خلال التفرقة التى أشرت إليها فى بداية المقال بين السلوك والخبرة باعتبارهما جانبى الظاهرة النفسية فى صورتها الخام، ثم ما ذكرته من تفرقة بين السلوك الصريح والسلوك الضمنى. ومن الواضح أننا نستطيع أن نتناول الكلام والمشى والكتابة (فى عناصرها الحركية) بأساسيات أسلوب المشاهدة العلنية المباشرة الذى تعرفه بحوث الفيزياء والبيولوجيا، ولكننا لا نستطيع أن نتناول بهذا الأسلوب عملية التفكير، ومع ذلك فلا يمكن لعاقل أن ينكر أن التفكير حقيقة لا شك فيها، وما يقال عن التفكير يقال عن الخبرة واستعصائها على المشاهدة بشكلها العادى، المباشر والعلنى.

٢- مظهر آخر لتعقد الظاهرة النفسية، هو أننا فى جميع الأحوال لا نجد أمامنا لتوقيع المشاهدة موضوعا نسميه «شيئا»[1]، كما هو الحال فى علوم النبات والحيوان مثلا؛ ففى هذه العلوم يجد الدارس «أشياء» يجرى عليها مشاهداته العلنية (على الأقل كنقطة بداية)، كالخلايا المختلفة، والأنسجة، والأعضاء، أو كما هو الحال فى العلوم الطبيعية حيث يجد الباحث أمامه أنواع الفلزات وغير الفلزات، أو يجد أمامه العناصر والمركبات... إلخ، أما فى علم النفس فالظاهرة النفسية التى تمثل نقطة البدء فى دراسات علماء النفس هى أساسا عملية[2]، من هذا القبيل عمليات تركيز الانتباه والتعلم والتذكر والتفكير، ولاتوجد ظاهرة نفسية يمكن أن ننظر إليها كما ننظر إلى «شىء» ما. ويمكن القول بناء على ذلك

(1) thing.

(2) process.

إن طبيعة الظاهرة النفسية تحملنا منذ خطوتنا البحثية الأولى على أن نتصور علمنا مناظرا - إلى حد ما - لعلوم فيزيولوجيا النبات والحيوان وليس لعلوم التشريح والتشريح الدقيق والمورفولوجيا. وحتى هذا التشبيه لا يصمد لمزيد من التعميق. ففى العلوم الفيزيولوجية يجد الدارس أمامه أشياء ملموسة (يراها تحت المجهر مثلا) ويتابع عبرها بعض مراحل العملية التى يدرسها، مثال ذلك تكوّن بعض البروتينيات فى جسم الخلية العصبية وانتقالها عبر محور الخلية، أو انتقال التأثير الفيزيوكيميائى (وهو ما نسميه الدفقة العصبية)[1] الذى يثيره المنبه فى الخلية العصبية عبر محورها وإمكان قياس هذا الانتقال باستخدام الأجهزة المناسبة لذلك[*] (Gamong 1977).

٣- جانب ثالث من جوانب تعقد الظاهرة النفسية أنها مركّبة المنشأ، بمعنى أنه مع التسليم بانغماس جذورها فى أصول عضوية كالجهاز العصبى بأجزائه المختلفة، والموصلات العصبية[2]، (كالاستايلكولين[3] والدوپامين[4]) والغدد الصماء[5] بما تفرزه من هرمونات.. إلخ ومع ذلك فإنه لا يمكن ردها بكاملها إلى مجموع هذه الأسس وحدها، وبعبارة أخرى فإن هذه الركائز العضوية تقوم بدور العلل الضرورية وراء الظواهر النفسية، ولكنها لا تقوم بدور العلل الكافية؛ ولتوضيح هذه الحقيقة يكفى أن نلاحظ الظاهرة النفسية كما نعيشها، فأنا الذى أتذكر وليس الفص الصدغى من المخ، وأنا الذى أفكر وأخطط وليس الفص الجبهى من المخ، كما أننى أنا الذى أتكلم وليس الفم ولا الحنجرة، ولا منطقة بروكا ولا منطقة فيرنيكا فى المخ، ومؤدى ذلك كله أننا لا نستطيع أن ندعى وجود تناظر دقيق بصيغته ١ : ١ بين علم النفس وعلوم وظائف الأعضاء (فى النبات والحيوان) (سويف ١٩٩٦).

---

(1) impulse.

(*) يسمى الجهاز المستخدم لهذا الغرض The Cathode ray oscilloscope.

(2) neurotransmitters.

(٣) ويرمز بالرمز ACH acetylcholine.

(٤) ويرمز له بالرمز DA dopamine.

(5) endocrines.

٤- مظهر رابع لتعقد الظاهرة النفسية أننا فى معظم الأحيان لا ندرس هذه الظاهرة النفسية أو تلك من حيث الوجود أو العدم، ولا من حيث مستوى نشاطها، ولكننا ندرسها من حيث دلالتها؛ فنحن ـ فى معظم الأحيان ـ لا ندرس ارتفاع الصوت الصادر عن شخص باعتبار خصائصه الشكلية، ولكن ندرسه من حيث إنه يعنى استغاثة أو تعبيراً عن الألم، أو الغضب. . إلخ، بعبارة أخرى فإن البعد الدلالى للظاهرة النفسية هو ـ فى معظم الأحوال ـ محور اهتمامنا.

وهنا مظاهر أخرى لتعقد الظاهرة النفسية غير المظاهر الأربعة التى ذكرتها ولكن ليس المهم الآن حصر هذه المظاهر، بل المهم أننا نقدمها فى هذا المقام كمؤشرات على مستوى التعقد الذى تبلغه الظاهرة النفسية، وهو ما استلزم منذ المراحل المبكرة لظهور علم النفس ابتكار طرق خاصة به لتوفير مطلب الموضوعية فى دراساته.

مكانة مطلب الموضوعية فى علم النفس العلمى :

تحتل مشكلة الموضوعية لدى علماء النفس مكانة متميزة مصحوبة بدرجة ملحوظة من الوعى بهذه المكانة، وهم فى هذا الصدد يختلفون عن العلماء الطبيعيين والبيولوجيين الطبيين؛ ففى حين يعدها هؤلاء الأخيرون مسألة مفروغا منها أو مسلما بها دون أن يناقشوها صراحة أو يدخلوها بشكل صريح فى تعليم تلاميذهم، نجد أن علماء النفس يهتمون بمناقشتها بل يتجشمون مشقة البرهنة على توفرها فى معظم بحوثهم، ثم إنهم يفردون لها فصولاً قائمة بذاتها فى كثير من مؤلفاتهم حول منهج البحث السيكولوجى، ودروسا عملية لتدريب طلابهم. أما لماذا انفرد علماء النفس بهذا التوجه مختلفين فى ذلك عن العلماء الطبيعيين والبيلوجيين الطبيين فلا نجد له تفسيرا إلا بالرجوع إلى ارتفاع مستويات التعقد النسبى الماثلة فى ظواهر النشاط النفسى مقارنة بغيرها من الظواهر.

ويظهر هذا الاهتمام ـ غالبا ـ تحت اسم أو مصطلح واحد هو الصدق[1] أو مصداقية المشاهدة والقياس، فإذا ابتكر أحد الباحثين النفسيين مقياسا بهدف قياس الذكاء فيلزمه أن يقدم البرهان الصريح على أن مقياسه يقيس فعلا هذه الوظيفة، فإذا قدم البرهان العملى الصريح فالمقياس صادق. وإذا أجرى تجربة على تغير كفاءة التذكر تحت شروط واقعية مختلفة فلا بد له من أن يقدم البرهان الإجرائى الصريح على أن إجراءاته تتناول فعلا وظيفة التذكر... إلخ. وعندما ننظر نظرة فاحصة فيما ينطوى عليه مفهوم الصدق هذا نجده ينطوى على المعنيين المذكورين تحت مصطلح الموضوعية كما أوردناهما عند لالاند، وهما: ضد الذاتى أو الفردى وما تقتنع به جميع العقول. ويتضح لنا هذا التطابق بين معنى المصطلحين الصدق والموضوعية إذا ما نظرنا عن قرب فى جانبين رئيسيين لمطلب الصدق كما يعالجه علماء النفس فى كتاباتهم المختلفة؛ فهم يفرّقون بين جانبين أو مظهرين أساسيين للصدق" يطلقون على أحدهما اسم الصدق العملى[2] والآخر صدق المفهوم[3]. ويقصد بالصدق العملى بيان أن الوظيفة أو الظاهرة التى أتكلم عنها لها وجود فعلى مستقل عن أوهامى ورغباتى؛ فالمقياس الذى أدعى أنه يقيس الذكاء يرتبط ارتباطا موثقا بكل مقاييس الذكاء الأخرى التى ابتكرها آخرون قبلى واعتُرف بها من أهل التخصص، وهذه جميعا ترتبط ارتباطا موثقا بما نعتبره فى حياتنا سلوكا ذكيا، أى سلوكا قادرا على حل أنواع معينة (مقننة) من المشكلات حلولا تتميز بالكفاءة والسرعة. وهذا هو المقصود بالصدق العملى، والمتأمل فى هذا المعنى يجده مطابقا لوصف الموضوعى بأنه ضد الذاتى.

ومن ناحية أخرى يقصد بصدق المفهوم (أو ما يمكن تسميته كذلك بالصدق النظرى) أننا عندما نستخدم مصطلحا للإشارة إلى ما نعتقد أنه ظاهرة نفسية نكتشفها حديثا ولم نكن نعرف عنها شيئا من قبل فلا بد من أن نتنبأ بظهور

(1) validity.

(2) empirical validity.

(3) construct validity.

علاقات منتظمة بين هذه الظاهرة (كما يشير إليها المفهوم) وعدد من الأداءات أو مضامين لمفاهيم أخرى تستتبعها الطبيعة النظرية للمسمى الذى ندعى اكتشافه (Sechrest 1984) فإذا ادعيت مثلا أننى بلورت اكتشاف ظاهرة نفسية أطلقت عليها اسم التوتر النفسى[1] لم تكن معروفة معرفة علمية موثقة من قبل، وادعيت فى تحديدى طبيعة هذا التوتر أنه نوعان: توتر موقفى وتور أورجانيزمى، وأن المؤثرات الموقفية هى المحرك للتوتر الأول، وأن من أهم محركات التوتر الثانى مدى هامشية الوضع الاجتماعى للفئة من فئات المجتمع التى ينتمى الشخص إليها، فبالإمكان أن نرتب على ذلك سلسلة من التنبؤات ثم نتقدم لامتحان صدقها أو زيفها بإجراءات منهجية محددة، وبمقدار ما تصيب هذه التنبؤات من تحقق فعلى يرتفع رصيد الصدق المفهومى لمصطلح التوتر النفسى، أى ترتفع مصداقيته كمؤشر على وجود ظاهرة نفسية لها اتساقها مع نفسها، ولها الأوصاف والعلاقات التى أحددها من خلالها. ويعد تعريف هذا الوجه الثانى من الصدق (أى الصدق المفهومى) مطابقا تماما للجزء الثانى من تحديد معنى الموضوعية كما ورد عند لالاند، ومؤداه: أننا عندما ندعى أن لهذه العلاقات قيمة موضوعية فنحن نعنى أن لها قيمة بالنسبة لجميع العقول، ومعنى ذلك إذن أن جزءا لا يتجزأ من العمل العلمى لعلماء النفس هو بيان أن ما يتصدون للقول به أو لوصفه من وظائف أو ظواهر نفسية أنما يتوفر له الصدق العملى والصدق المفهومى وذلك كشرط لاعتراف المجتمع العلمى داخل مجال التخصص بما يقولون به والسماح بإضافته إلى التراث العلمى للتخصص. وجدير بالذكر أن علماء النفس يستخدمون فى السبيل إلى تحصيل هذا الاعتراف الطرق الأساسية التى يستخدمها زملاؤهم داخل مجالات البحث العلمى الأخرى، أعنى القواعد المنهجية فى خطوطها العريضة من ناحية، والخطوات المؤسسية من ناحية أخرى.

فأما عن القواعد المنهجية العريضة فمن أهمها قابلية إجراءات البحث للإعادة،

(1) psychic tension.

وقابلية النتائج للاستعادة، والصياغة المفصلة للضوابط المنهجية (المنطقية والتجريبية والرياضية) التى أدت وتؤدى بهم إلى النتائج، وفيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة الخاصة بالضوابط المنهجية فهم يستخدمون فى هذا الصدد عنصرى الضبط الرئيسيين المستخدمين فى كثير من البحوث العلمية وهما الرياضة وتصميمات التجارب، علما بأنهم لا يستخدمون فى الوقت الحاضر من أفرع الرياضة غالبا إلا فرعا واحدا هو الإحصاء بشقيه الوصفى والاستنباطى، وقد قامت فى العقود الأخيرة محاولات جادة لاستخدام فروع أخرى من الرياضة لكن هذه المحاولات لاتزال محدودة. ويمكن القول بوجه عام إن اهتمام علماء النفس الواضح بمسائل المنهج يتيح لهم مزيدا من التوجه إلى ابتكار الأساليب البحثية النوعية التى من شأنها أن تزيد من توفر الموضوعية فيما يصلون إليه من نتائج، أو التوجه إلى استخدام أساليب إحصائية جديدة لاكتشاف أنها أكثر ملاءمة من الأساليب السائدة لتحليل أنواع بعينها من بيانات البحوث النفسية الميدانية أو المعملية هذا عن التقدم على طريق الخطوات المنهجية المعززة لتوفر الموضعية.

أما عن الخطوات المؤسسية فقد تعلم علماء النفس من زملائهم فى فروع العلوم الطبيعية والبيولوجية أن يُقيموا لأنفسهم من المؤسسات ما يرسخ مطلب الموضوعية؛ فأقاموا الجمعيات المحلية (مثل جمعية علم النفس الأمريكية وجمعية علم النفس البريطانية، والجمعية المصرية للدراسات النفسية)، والعالمية (مثل المجلس الدولى لعلماء النفسICP) يعرضون فيها إنجازاتهم ويناقشهم زملاء التخصص فى مدى مصداقية هذه الإنجازات. كما أنشأوا شبكة لتوزيع المعلومات البحثية، تتألف الآن من الدوريات التى تغطى معظم فروع التخصص الدقيقة، وتعتمد هذه الدوريات على طواقم من المحكَّمين الأنداد[1] فيما تقرره من قبول أو رفض ما يرسل إليها برجاء النشر.

هناك أيضا مؤسسات التعليم والبحث ونظم المكافآت للمتفوقين بإنتاجهم من العلماء.

(1) peer reviewers.

تلخيص وملاحظات ختامية :

ناقشنا فى هذا المقال ما المقصود بالعلوم الاجتماعية، وأوضحنا أننا سوف نتحدث عنها إجمالا، مع التركيز على علم النفس العلمى بوجه خاص، وعنينا بتنبيه القارئ إلى ضرورة التفرقة بين مضامين مختلفة يشار إليها فى الوقت الحاضر باسم علم النفس، وأن هذا نوع من الخلط لا يساعد صاحبه على فهم الموضوع الذى نحن بصدده، ومن ثم وجب التنبه إلى أن علم النفس العلمى شىء، وعلم النفس الدارج والتحليل النفسى شيئان آخران، وأن حديثنا فى المقال الراهن يتناول علم النفس العلمى. وناقشنا معنى الموضوعية ملتزمين بما أورده لالاند فى معجمه عن المصطلحات الفلسفية، ثم أوضحنا بعد ذلك أن مفهوم الموضوعية مفهوم مركب، وأنه ينطوى على مركبتين اثنتين على أقل تقدير، إحداهما موضوعية المدرَك والثانية موضوعية الناتج، وأشرنا - بجلاء - إلى أن تاريخ العناية بهذه القضية كما يستشف من مسيرة العلم ينصبُّ أساسا على المركبة الثانية، فقد عنى العلماء جميعا (ومن بينهم علماء النفس) عناية فائقة بوضع الضمانات للاطمئنان إلى عملية التحقق من سلامة الوصول إلى الناتج، وفى هذا الصدد تقدمت جهودهم على مسارين: أحدهما منهجى والآخر مؤسسى، وقد ناقشنا كلا من هذين المسارين مع عناية خاصة بالأساليب والأدوات النوعية التى ابتكرها علماء النفس فى هذا الصدد بما يناسب طبيعة مجال دراستهم.

فى هذا السياق هناك عدد من الملاحظات الختامية نجملها فيما يلى:

أولا: مشكلة الموضوعية فى العلم ليست من المشكلات التى يمكن أن تحل حلا نهائيا مرة وإلى الأبد، وتدل كثير من الدلائل التاريخية على أنها تفرض نفسها من حين لآخر على عقول العلماء وفلاسفة العلوم، وفى كل مرة تفرض نفسها بوجه جديد.

ثانيا: يرتبط هذا الانبعاث الذى يحدث بين الحين والحين للمشكلة وما تثيره من تساؤلات، يرتبط بالاتساع المطرد للمساحة التى يغطيها العلم، والتى لا يلبث

أن يأمل فى المزيد من توسيعها، وعندما يبدأ العلماء فى السعى الفعلى نحو هذا التوسيع ينبعث أمامهم مطلب الموضوعية مجددا، وفى هذه المرة يأتى الانبعاث بوجه جديد غير الوجوه التى ألفوها من قبل، والتى سبق لهم أن أعدوا العدة المناسبة للوفاء بمقتضياتها، ومن ثم يعكفون على تدبير عدة إضافية وإعادة النظر فى بعض العُدة القديمة.

ثالثا: يواجه علماء النفس (وجمهرة العلماء الاجتماعيين) فى هذه الأيام بعثا جديدا لمشكلة الموضوعية وفى هذه المرة يأتى الوجه الذى تنبعث به المشكلة من خلال موضوع (سوسيولوجية المعرفة) أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم النسبية الحضارية لمنجزات علم النفس (وسائر العلوم الاجتماعية).

رابعًا : يرى كاتب هذا المقال أن الوقت قد حان بالنسبة لعلماء النفس لكى يبذلوا مزيدا من الجهد فى الاهتمام بهذا النوع من المشكلات التى تنتمى أساسا إلى مجال فلسفة العلوم، لا على حساب اهتماماتهم الأصلية بمسائل التخصص الدقيق ولكن بالإضافة إليها، إذ من شأن هذا الاهتمام الإضافى أن يعود عليهم بمزيد من التمكن من تعميق الفهم لمشكلات التخصص الدقيق، وبمزيد من القدرة على صياغة الحلول ذات الكفاءة العالية. ومن أوضح الأمثلة على صحة هذا الرأى ما أوردناه فى المقال الراهن عن مشكلة (صدق المفهوم) بالإضافة إلى أن هناك موضوعات سيكولوجية تقتضى بطبيعتها أن يجمع الباحث بين التمكن من مهارات البحث التخصصى الدقيق والقدرة والمران على النظر الفلسفى الجاد، من هذا القبيل موضوع الشعور أو الوعى (سويف ١٩٩٦).

تعقيبات :

١- يمكن الرجوع فى ذلك إلى كتاب «**نحن والعلوم الإنسانية**»، بقلم مصطفى سويف، القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٦٩.

٢- يضم هذا المعنى تحته نوعين فرعيين من الصدق يجرى تسميتها فى كتب

القياس النفسى باسم الصدق التلازمى concurrent validity والصدق التنبؤى predictive validity. ويمكن أن يتسع ليضم كذلك نوعًا فرعيًا ثالثًا هو صدق المضمون content validity.

٣- يشار بهذا المصطلح إلى الخصائص اللصيقة بتكوين الفرد، وقد كان آلان إدواردز A. Edwards من أوائل من استخدموا هذا الاصطلاح. وهو يعرفه بأنه يشير إلى مجموعة المتغيرات التى يمكن أن يصنف الكائن على أساسها، والتى يمكن أن تنشأ عن القياسات التى نجريها على الخصائص العضوية والفيزيولوجية والسيكولوجية للكائن. ومن الأمثلة على المتغيرات الأورجانيزمية ارتفاع القامة ووزن الجسم والجنس ومستوى التعليم، والمستوى الاجتماعى الاقتصادى للشخص، ومن أهم ما يميز هذه المتغيرات أنها لا تصنف ضمن متغيرات المنبه ولا متغيرات الاستجابة، ومع ذلك ففى معظم الأحوال ينبغى للباحث أن يحسب حسابها عند التصدى لتفسير نتائج التجارب السيكولوجية (Edwards 1956).

٤- يمكن وصف الصدق المفهومى بأنه الصدق النظرى للمفهوم الذى نحن بصدد قياسه أو التجريب عليه، وذلك على أساس أن تحقيق هذا الصدق يعتمد أساسا على محاولات التنظير التى يقوم بها الباحث بشأن هذا المفهوم، ومن خلالها يتنبأ ببعض علاقاته ويكتشف بعضها الآخر.

٥- الإشارة هنا إلى الابتكار الحديث لأسلوب التجريب المنضبط على الحالة الوحدة (ن = ١)، وماتبع ذلك من ابتكار معادلات إحصائية تصلح لمعالجة البيانات المترتبة على هذا التجريب، وكذلك ما تبعه من ابتكار لتصميمات جديدة للتجارب (Edgington 1982; Stanley 1985; Barlow & Hersen 1984).

٦- الإشارة هنا إلى البدايات المطروحة الآن لاستخدام أسلوب الانحدار اللوجيستى حيث يكون المتغير التابع منفصلا discontinuous (أى منقسما إلى فئتين أو أكثر) وليس متصلا continuous وهو ما كان يصلح معه

استخدام أسلوب تحليل الانحدار المتعدد العادى (Hosmer & Lemeshow 1989; Menard 1995).

المراجع :

Barlow, D.H. & Hersen, M. (1924) *Single case experimental designs,* New york: Pergamon.

Ber- Tal, D. & Kruglanski, A. W. (1988) *The social psychology cf knowledge,* New York Cambridge University Press.

Brett, (1921) History of psychology, *Brett's history cf psychology* edited & abridged by R. S. Peters 1965, Cambridre (Mass.): MIT Press.

Edgington, E.S. (1980) Overcoming obstacles to single subject experimentation, *J. educ. Statistics, 5*/3, 261-267.

Edgington, E.S. (1982) Nonparametric tests for single- subject multiple schedule experiments, *Behavioral Assessment,* 4.83-91.

Edwards A.L. (1956) *Experimental design in psychological research,* New York: Reinhart.

Gamong, W. (1977) *The nervous system* Los Alton California: Lange Med. Publications.

Hosmer, D. W., Jr. & Lemeshow, S. (1989) *Applied logistic regression,* New York: Wiley.

Lalande, A. (1924) *Vocabulaire technigue et critique de la philosophie,* Paris: Librarie Felix Alcan.

Menard, S. (1995) *Applied logistic regression analysis,* Thousand Oaks: Sage.

Murphy, G. (1938) *An historical introduction to modern psychology,* London: Kegan Paul.

Rosenberg, N. & Birdzell, L. E. Jr. (1990) Science, technology and the Western miracle, *Scientific American* (November), 263/5, 18-25.

Stanley B. (1985) Towards applicable single case research , *Bull. of the Brit. Psychol. Soc.,* 38, 33-36.

مراجع بالعربية :

- سويف (مصطفى) (١٩٩٦) طبيعة الوعى، **المجلة الاجتماعية القومية**، ٣٣/١، ٢ ، ٣٩-٥٥.